التربية على القيم الإسلامية - حاجة واقعية لبناء واقع أمثل –

الشيخ نعيم قاسم[١]

أولاً: التعريف بالتربية الأخلاقية والقيم:

القيم مجموع قيمة، وهي عبارة عن مجموعة من الأهداف والمُثل العليا والمعايير، التي يراها الإنسان جديرة بالسعي لتحقيقها، فهي مرجعه في الرؤية والسلوك، وفي الحياة الفردية والاجتماعية، وهي مقياسه لتحديد الخير من الشر، والصلاح من الفساد.

وتتشكّل القيم بالمنظور الإسلامي من الأوامر الإلهية، التي ترسم الطريق النموذجية للإنسان نحو الكمال، وفي ميادين علاقاته الثلاث: مع ربه ونفسه ومجتمعه، والتي يمكن التعبير عنها كعناوين للفضائل والأخلاق، كالصدق، والأمانة، وحسُن الخلق، واستقامة السلوك، واحترام النفس الإنسانية، والعدل، والتقوى...

بينما تتشكّل القيم بالمنظور غير الإسلامي من قواعد يستخلصها المفكرون أو التربويون، مما ترسَّخ من رصيدٍ تراكمي؛ نتيجة التجربة الاجتماعية لمجتمع ما، وما تسالم عليه هذا المجتمع من أهدافٍ وعادات، تسود لفترة من الزمن، متأثّرة بثقافة هذا المجتمع وانفعاله مع تطوّرات

(١) كاتب وباحث من الحوزة العلمية ، من لبنان.

المجتمعات البشرية. ومع أنّ البعض يؤمن بثبات هذه القيم، إلاَّ أنَّهم يفتقرون إلى القدرة لتأكيد استمراريتها، بينما يؤمن البعض الآخر بتغير هذه القيم؛ تبعاً لتطوّر المجتمعات.

وتنشأ القيم في نظر غير الإسلاميين من القناعة العقلية بها، وتقدير انسجامها مع المصلحة الإنسانية. أما في نظر الإسلاميين فهي محدَّدة في الإسلام، على أساس النظرة الثابتة للإنسان، وهي تتطلب جهداً وتربية يساعدان على الإيمان بهذه القيم، ثم السعي للوصول إليها.

ثانياً: مسوِّغات التربية الأخلاقية والقيم:

إنّ ثبات القيم في الإسلام مرتبط بثبات الفطرة الإنسانية، قال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1]، فلا صحّة لنظرية النسبية في القيم الأخلاقية، التي تدّعي تغيّرها تبعاً لتغيُّر الزمان، مع إمكانية تحوّل المعروف منكراً والمنكر معروفاً. والواقع والوجدان يقتضيان أنّ الثبات هو المنسجم مع طبيعة الإنسان؛ ولذا نرى القيم الإسلامية ثابتة، وفي الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «... **فحلاله صلى الله عليه وآله حلالٌ إلى يوم القيامة، وحرامُه حرامٌ إلى يوم القيامة...**»[2]؛ حيث إنّ الأحكام طريق ومنهج إلى القيم؛ فما لم يتأدّب الإنسان بآداب الشريعة الحقّة ويلتزم بظاهرها، لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة.

وكذا ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله في صدد تحذيره أصحابه مما يجري في آخر الزمان، حيث يحدّثهم عن انقلاب المعايير بما يخالف شرع الله – تعالى –: «**كيف بكم إذا فسدت نساؤكم، وفسق شبابكم، ولم تأمروا بالمعروف، ولم تنهوا عن المنكر.**

(١) الروم: ٣٠.

(٢) الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، تحقيق وتصحيح وتعليق علي أكبر الغفاري، ط٤، طهران، دار الكتب الإسلامية؛ مطبعة حيدري، ١٣٦٥هـ.ش، ج٢، باب الشرائع، ح٢، ص١٨.

فقيل له: ويكون ذلك يا رسول الله؟.

فقال: نعم وشرٌ من ذلك، كيف بكم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف.

فقيل له: يا رسول الله ويكون ذلك؟

قال: نعم، وشرٌ من ذلك، كيف بكم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفا»[1].

وليس خافياً على أحد بأنَّ الإنسان ابن بيئته، وهو يتأثّر بشكل مباشر بالرصيد المعرفي والوجداني والسلوكي الذي توفّره له هذه البيئة، وهذا ما بيَّنه رسول الله ﷺ: «**كلُّ مولودٍ يولد على الفطرة إلاَّ أنّ أبواه يهوّدانه أو ينصّرانه أو يمجّسانه**»[2].

وبما أنَّنا نريد سعادة الإنسان في الدنيا، والتهيئة لعروجه إلى مراتب الكمال، ورفع مقدار رصيده لثواب الآخرة، فإنَّ اختيار السبيل الموصل إلى هذه الأهداف يشكّل المنطلق الأساس لمصلحة هذا الإنسان. فلا يجوز تركه لهواه من دون إرشاد وتوجيه، خاصة أنَّه في موقع الاختيار الإرادي، قال تعالى: ﴿**وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا**﴾[3]. فمن واجبنا أن نعرِّفه على قيم الإسلام، وهذا ما فعله الأنبياء عليهم السلام والمرسلون عليهم السلام بتبليغ أقوامهم أو العالمين بالتعاليم التي تُصلح أحوالهم في دنياهم وآخرتهم.

ثالثاً: دور التربية:

إذا ما دقّقنا النظر في كيفية تغيّر القيم في المجتمعات، فإنَّنا نتلمَّس عملاً دؤوباً يهيّئ مناخات التغيير، ويتوافر على وسائله المناسبة، في تظافر مدروس ومبرمج للجهود الثقافية، والسياسية، والاقتصادية،

(١) الكليني، الكافي، م،س، ج٥، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ح١٤، ص٥٩.
(٢) الطبرسي، أحمد بن علي: الاحتجاج، تحقيق وتعليق وملاحظات السيد محمد باقر الخرسان، لاط، النجف الأشرف، دار النعمان للطباعة والنشر، ١٣٨٦هـ.ق/ ١٩٦٦م، ج٢، هامش ص١٧٥.
(٣) الشمس: ٧-١٠.

والاجتماعية التي ينتج عنها تسالم المجتمع على القيم الجديدة؛ فالقيم لا تنتج عن تحوّل آلي بسبب مرور الزمن أو تطوّر المجتمعات، وإنّما تنتج عن خطة وعمل دؤوبين لإحداث التغيير.

ومثالُه التحوّل في الغرب من قيمة طهارة العلاقة الجنسية؛ من خلال الزواج وضوابط المحارم، إلى قيمة سلبية بإطلاق العنان للشهوة الجنسية؛ تحقيقاً للذّة، وإنشاء الضوابط التي تحمي هذا الاتّجاه. فلم يحصل هذا التحوّل بسبب التطوّر الاقتصادي أو مرور الزمن، حيث كان للعالم الإسلامي حضوره العلمي المميّز، وتطوّر إمكاناته ومدنيّته، ومع ذلك لم تتغيّر قيمه؛ والسبب يكمن في تظافر جهود المفكّرين والتربويّين والاتّجاه العامّ للمحافظة على قيم الإسلام والعمل لها، بينما عملوا في الغرب على التنظير للحرية الفردية التي لا يحدّها إلاَّ الإضرار بحرّيات الآخرين، وأطلقوا العنان لمراكز الفساد الأخلاقي والدعارة، ونظّموا «**مهنة**» الزنا، وبثّوا البرامج الإباحية، وقاموا بحملات إعلامية مكثّفة للتأكيد على اللذّة المادّية بلا ضوابط؛ بوصفها حقّاً مشروعاً من حقوق الإنسان. وقد ساهم رأس المال في الاستثمار في هذا الصدد. وحمى السياسيّون والمشرّعون في المجالس النيابية هذا الاتّجاه بقوانين؛ ما أوصل إلى حرية المساكنة من دون زواج، بل تطوّر الاتّجاه الجنسي إلى الشذوذ، الذي شرّعته بعض الدول، كبريطانيا وهولندا، وعملوا على ضخّ هذه الأفكار في البرامج التعليمية؛ ما جعل البيئة الحاضنة محاطة بهذا الاتّجاه السلبي.

وفي الحقيقة إنّ الأخلاق نتاج التربية، وكذلك القيم؛ حيث يبدأ كلّ شيء من الأسرة، ثمّ المدرسة والمجتمع. ولقد عمل الأنبياء عليهم السلام على تربية الناس وتوجيههم بالدعوة، والتبليغ، والقدوة، والموعظة، والتعاليم؛ حيث قال - تعالى - في صدد بيان الهدف من إرسال الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾[1].

(١) الأحزاب، ٤٥-٤٦.

وفي رواية عن النبيﷺ: «**إنّما بعثت لأتمّم مكارم الأخلاق**»[١].

وقد أفرَدَ الإمام زين العابدينعليه السلام دعاءً كاملاً لمكارم الأخلاق، وهو حافلٌ بالتوجيه نحوها، وتأصيل السلوك للارتقاء إليها، وممّا قالهعليه السلام: «**وأغنني وأوسع عليَّ من رزقك ولا تبتلني بالنظر، وأعزَّني ولا تبتلني بالكبر، وعبِّدني لك ولا تُفسد عبادتي بالعُجب، وأَجْرِ للناس على يديَّ الخير ولا تمحقه بالمنّ، وهب لي معالي الأخلاق، واعصمني من الفخر**»[٢].

وقال الإمام الصادقعليه السلام: «**إنّ الله عزّ وجلّ يحب معالي الأمور، ويكره سفسافها**»[٣].

وبالتالي ينتج عن هذه التربية سلوكٌ أخلاقي عظيم، يمكننا تلمُّس أهمّيّته من وصف أمير المؤمنينعليه السلام للمتّقين المحقّقين لمكارم الأخلاق: «**فالمتّقون فيها هم أهل الفضائل، منطقهم الصواب، وملبسهم الاقتصاد، ومشيهم التواضع، غضّوا أبصارهم عمّا حرَّم الله عليهم، ووقفوا أسماعهم على العلم النافع لهم. نزلت أنفسهم منهم في البلاء كالتي نزلت في الرخاء. ولولا الأجل الذي كتب لهم لم تستقرّ أرواحهم في أجسادهم طرفة عين؛ شوقاً إلى الثواب، وخوفاً من العقاب. عظم الخالق في أنفسهم فصغر ما دونه في أعينهم**»[٤].

لذا تحتاج التربية إلى تظافر جهود الوالدين والمدرسة والمجتمع، وأن يؤصِّل مضمونها العلماء والمفكّرون والتربويّون، وأن يساهم فيها المؤلّفون والإعلاميّون والمرشدون الاجتماعيّون، وأن يتمّ اختيار الأسلوب الناجع

(١) المجلسي، محمد باقر: بحار الأنوار، تحقيق عبد الرحيم الرباني الشيرازي، ط٣، بيروت، دار إحياء التراث العربي، ١٤٠٣هـ.ق/ ١٩٨٣م، ج١٦، باب مكارم أخلاقه وسيره وسننهﷺ، ح١، ص٢١٠.

(٢) الإمام علي بن الحسين زين العابدينعليه السلام: الصحيفة السجادية، من دعاء مكارم الأخلاق.

(٣) العاملي، محمد بن الحسن: وسائل الشيعة، تحقيق ونشر مؤسسة آل البيتعليهم السلام لإحياء التراث، ط٢، قم المقدّسة، مطبعة مهر، ١٤١٤هـ.ق، ج١٧، باب اسحباب مباشرة كبار الأمور...، ح٣، ص٧٣.

(٤) الرضي، الشريف محمد بن الحسين بن موسى: نهج البلاغة(الجامع لخطب الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام وحكمه ورسائله)، شرح الشيخ محمد عبده، ط١، قم المقدّسة، دار الذخائر؛ مطبعة النهضة، ١٤١٢هـ.ق/١٣٧٠هـ.ش، ج٢، الخطبة١٩٣، ص١٦٠-١٦١.

في القدوة وملازمة الجماعة وتوفير المناخات الأخلاقية والأنشطة في إطار اللذات المحلَّلة والطيبات التي أحلَّها اللّه تعالى.

من هنا كان علينا أن نسعى دائماً لملء أوقات الأطفال والشباب وحياتهما بكل ما من شأنه أن يساعدهما على الاستقامة والفضائل، وأن لا نقف عند القواعد العامّة النظرية التي رسمها الإسلام، بل أن نحاول وضعها موضع التنفيذ والتطبيق؛ من خلال وضع الآليات المناسبة، والمعاصرة، والجذابة التي تسهِّل ارتباط هذا الجيل بالقيم.

علينا أن نعمل، وإلاَّ فسيعمل غيرنا ويؤثِّر سلباً على أجيالنا، ولا نربط عملنا ببروز مؤشّرات سلبية في اتّجاهات الجيل، فكثير منها يظهر بعد تفاقمها وصعوبة تلافيها، إنّما علينا أن نعمل في كلّ الاتّجاهات، وبملاحظة كلّ الاحتمالات؛ لتُبذل أقصى الجهود في تربيةٍ مؤثّرة فاعلة ونشطة، بحيث تستوعب جوانب شخصية المتعلّم، وتؤدّي غرضها في غرس قيم الإسلام في نفسه.

رابعاً: إجراءات تحويل القيم إلى سلوك:

بعد أن حسمنا خيارنا في اختيار الإسلام؛ بوصفه منهجاً للحياة، يحتوي منظومة القيم الكاملة التي نعمل لتنشئة أجيالنا عليها، يواجهنا السؤال المركزي الصعب: كيف نحوِّل القيم إلى سلوك؟

ويوجد كثيرون شرحوا موضوعية القيم وثباتها بالانطلاق من خصوصيّة ثبات الشريعة الصادرة عن خالق البشر، وكثيرون ركَّزوا على شرح المعارف الإسلامية؛ ما أنجز حضوراً ثقافياً إسلامياً واسعاً في عالمنا الإسلامي، وكثيرون ألَّفوا وفسَّروا وناقشوا ونقدوا، ولم يتجاوز المناخ العام دورَ الإسلام في الحياة على الرغم ممّا عصف بالمسلمين من استعمارٍ، وتجهيلٍ، ومحاولاتِ إقصاءٍ لمفاهيم دينهم، ثمّ جاءت الثورة الإسلامية المباركة في إيران بقيادة الإمام الخميني قدس سره لتعطي حيوية واسعة في إعادة الإسلام إلى مسرح الحياة السياسية، والثقافية، والحضارية.

لكنّنا نواجه في المقابل مأزقين:

الأول: مستوى الانتشار العالمي للحضارة المادية الغارقة في الجسد والهوى، والتي تمتلك فنون الترويج والتعبئة والدعاية والإعلام، وتسيطر على مفاصل التوجيه العالمي ثقافياً وتربوياً، وتُخفي في تمظهرها البرَّاق أخطار الفساد والانحراف والضياع، ما يجعلها قادرة على غزو مجتمعاتنا والتأثير على جيل الشباب المسلم؛ بهدفِ تضييع المفاهيم الأصيلة، وتسريع حضور الأفكار الالتقاطية عندنا، وحرماننا من التأمل أو التفكير؛ ليتحوَّل ما يُصدَّر إلينا كالمسلَّمات التي لا نقاش فيها.

الثاني: ضعفُ الوسائل والأساليب المستخدمة في تربية الأجيال وتنشئتهم، وغلبةُ النمط التقليدي في تعليم المعارف الإسلامية، وقلةُ نماذج القدوة الصالحة للمستويات المختلفة، ما يجعلنا أمام تحديات كبرى نحاول مواجهتها بإمكانات محدودة تفتقر إلى المنهجية والتخطيط المتكامل من جهة، وإلى التشويق والجذب من ناحية أخرى.

ولطالما لاحظنا مأزق التفاوت الكبير بين القيم التي نؤمن بها والسلوكِ الذي يترجمها على المستوى العملي؛ فنحن نسمع المواعظ والأفكار والتحليلات العميقة، لكنّنا نرى ضعفاً في الأداء، لا يُمكِّننا من تطويع الناشئة بهذه المفاهيم. إذاً، نحن أمام تحدياتِ تحويل القيم إلى سلوك، أمام نقلِ الإطار النظري والعقدي للإسلام إلى الإطار العملي الفردي والمجتمعي، بمستويات متقدّمة تحمي الأفراد والمجتمع من التأثّر بالأغيار.

من أجل معالجة بنَّاءة وفاعلة، نحتاج إلى مجموعة من الخطوات التي تساهم كلٌّ واحدة منها في وضع مدماك يساعد بنيانَ الالتزام على السمو، شرط أن نتعامل معها كسلّة واحدة، يُكمِّل البعض منها بعضها الآخر، ويحمي بعضُها البعض الآخر، وذلك في إطار خطة مدروسة توضع

لها الآليات والبرامجُ التنفيذية المساعدة؛ بهدف التوصّل إلى إيجاد حلول لما نعاني منه في تحويل القيم إلى سلوك.

ومن الإجراءات التي يلزم العمل عليها في طريق تحويل القيم إلى سلوك:

١.المكِّون المعرفي:

إنّ المعرفة بوابة تحديد الطريق، وهي المدخل الأول لتحديد القيمة التي لا تكتمل إلاَّ بمكوِّناتها الثلاثة: المعرفي، والوجداني، والأدائي (أو المهاري). وهذا ما يتطلب تعليماً وتثقيفاً للمراحل العمرية المختلفة بما يتناسب معها؛ ترسيخاً للقواعد الأصيلة الثابتة في تبنّي القيم؛ بالتأكيد على مصدرها وأهدافها وطريق تحصيلها؛ لذا علينا أن نحقّق في المكوِّن المعرفي عدّة أمور:

أ- **الشريعة الإلهية**: بوصفها مصدر القيم، فالمشرِّع هو الله الذي ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ﴾[١]، والذي يعرف شؤونه وشجونه وخفاياه ومتطلّباته: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ﴾[٢]، وقد أرسل إليه الأنبياء عليهم السلام والرسل عليهم السلام، وختمهم بسيدهم وخاتمهم محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي حمل القرآن الخالد كتاباً لهداية البشرية: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا﴾[٣].

ب- **تحكيم الشريعة**: حيث تُنظِّمُ الشريعة رغبات الإنسان وحاجاته واهتماماته، بإرشاده إلى السلوك الأفضل الذي يسعده في دنياه، وهذا هو الفلاح والنجاح الذي يتمنّاه كلّ

(١) الرحمن: ٣.
(٢) ق: ١٦.
(٣) الإسراء: ٩.

بني البشر. قال تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبۡلِكَ وَبِٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ يُوقِنُونَ ۝٤ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[1]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓۙ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾[3].

ج- **ثبات القيم**: حيث إنّ قيمَ الخير ثابتةٌ بثبات فطرة الإنسان، وقد صدرت عن الله تعالى مراعية لهذا الثبات التكويني، فهي ليست نسبية متغيّرة مع الأزمنة والعصور، ولا تتبع الأهواء والخصوصيات، وإنّما تحاكي بني البشر بحسب تكوينهم الإلهي؛ فقد أتى الدين منسجماً مع ما فُطِرَ الإنسان عليه، لينساب الالتزام بالقرآن الكريم في إطار الاندماج الطبيعي، في أقيم صورة وأفضل انسجام وتماه مع سنّة الله - تعالى - في الكون: ﴿فَأَقِمۡ وَجۡهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفٗاۚ فِطۡرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيۡهَاۚ لَا تَبۡدِيلَ لِخَلۡقِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُ

(١) البقرة: ١-٥.
(٢) الأعراف: ١٥٧.
(٣) النساء: ٦٥.

وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[١].

د- **النظام القيمي**: تشكّل القيم نظاماً شاملاً في ثوابها وآثارها الاجتماعية، ما يستدعي الاهتمام بها ككلٍ متكامل، وعدمَ التصرف معها بانتقائية: ﴿...أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَيَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلۡعَذَابِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴾[٢].

هـ- **إيجاد الحافز والدافع**: حيث يلزم تحفيزُ الإنسان لتعلّم القيم وفهمها، وتيسيرُ السبل المختلفة لتوفيرها له بالتبليغ والتدريس والإعلام والنشر... وتشجيعُه على السؤال والبحث؛ بوصفهما حاجة ضرورية للاهتداء إلى الطريق الأنجح: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِۗ وَأَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلذِّكۡرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيۡهِمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[٣].

و- **اكتساب المعيار الصحيح**: من خلال العمل على إكساب المتعلّم القدرة على التمييز بين الخير والشر، وتعليمه المقاييس التي تساعده على رسم الصورة السليمة للقيم؛ لتكون ثوابتُ القيم بصوابيتها واضحةً له، وتشكّل له المثل العليا التي تعبِّر عن الأهداف التي يجب السعي إليها؛ ذلك أنَّ المعرفة الواضحة بالقيم مقدّمة ضرورية للعمل باتّجاهها.

(١) الروم: ٣٠.
(٢) البقرة: ٨٥.
(٣) النحل: ٤٣-٤٤.

٢. الإيمان بالله تعالى:

يشكّل الإيمان بالله - تعالى - النقطة المحورية التي نحتاج إلى التركيز عليها؛ تصوّراً وتصديقاً، عقلاً ووجداناً، في إطار التفاعل الشامل الذي يحقّق الحضور الإلهي في حياة الإنسان؛ وفق منطوق الآية الكريمة: ﴿...وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾[١]، على أن لا تكون هذه المعيَّة مقتصرة على الرقابة على الأعمال، بل تتجاوزها إلى حالة من الحبّ، والعشق، والمناجاة، والمحاورة، والسؤال، والذكر، والأنس: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾[٢].

إنَّ الطريقة المعتمدة في عقد القلب ليؤمن بالله - تعالى - تقتصر غالباً على الترغيب والترهيب، بينما علينا أن نركّز -أيضاً-، وبالأساس، على التفكير بعطاءات الخالق، وبما منحنا من النعمة، والرحمة، والحبّ، والتفضّل، والرعاية الدائمة. وهذا ما يجعل الوجدان متفاعلاً في كلّ لحظاته مع الذات الإلهية. وهنا، لا يخفى انعكاس هذا العيش على الاستقامة والسلوك القويم.

لذا علينا أن نلاحظ التوجيهات الإسلامية المكثّفة في كلّ المجالات لتأكيد الصلة بالله تعالى: كالتوكل على الله، وشكره، ودعائه، والتأمّل في خلقه، وحشد الأدعية لكلّ عمل من أعمالنا اليومية قبل الطعام وبعده، وخلال أفعال الوضوء واحداً واحداً، وقبل الانطلاق للسفر، والبسملة التي نفتتح بها أعمالنا... إنّنا نجد بمراجعتنا للمستحبات أنَّها تشمل كلّ تصرّفات الإنسان؛ بتوجيهها نحو ذكر الله - تعالى - على كلّ حال، قال - تعالى -: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[٣].

(١) الحديد: ٤.
(٢) الرعد: ٢٨.
(٣) آل عمران: ١٩١.

٣. استحضار الرقابة الإلهية:

ويجري العمل على ذلك من خلال اتباع طريقة توجيهية، تُشعر المتعلّم بجدية الحضور الإلهي في حياته، وتترسّخ في ذهنه الرقابة التي لا تنقطع: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾[1]. وهي ليست رقابةً إحصائية، بل رقابةُ ثوابٍ وعقاب.

فعلينا أن نذكّره دائماً بالجنّة والنّار، في كلّ مراحله العمرية؛ بما يتحمّل من تفاصيل في كلّ مرحلة، شرط أن لا نستخدم هذه الرقابة لتحقيق رغباتٍ نريدها، أو أوامر نلقيها عليه؛ لأنَّه إذا ربط بين مطالبنا منه وهذا الاستحضار للحساب، فسيفهم أنّها مطالبنا وإرادتنا وأوامرنا.

نحن بحاجة لأن نُفهمه مصلحته الشخصية المباشرة في تنفيذ الأوامر الإلهية والانتهاء عن معاصيه؛ لشأنٍ يتعلّق بحياته ومستقبله وآخرته، وليس لنا في هذا كلّه أيّ مكسب شخصي.

في المقابل يجب أن نقنعه بالحضور الإبليسي الدائم، الذي يحضر ويعمل بأشكالٍ وطرق مختلفة؛ ليحرف الإنسان عن مصلحته وسعادته؛ لذا عليه أن يكون دائم الحذر والاستنفار ضد إبليس وأعوانه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾[2]، وقال - تعالى -: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ ۖ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[3]؛ وبذلك يكون قد تزوَّد؛ من خلال استحضار الرقابة الإلهية بالقدرة على المواجهة، ومن خلال رفض الوسوسات الشيطانية بالمناعة والحصانة الذاتية.

(١) ق: ١٧-١٨.
(٢) الناس: ١-٦.
(٣) فصلت: ٣٦.

٤. التربية على ظاهر الشريعة:

يحتاج المتعلّم إلى طريق واضح يتعرّف من خلاله على المسموح والممنوع، حيث يمكنه فهم تكليفه من دون تعقيدات أو خفايا أو أسرار يصعب عليه إدراكها، أو أن يعتبرها غير متوافرة بالنسبة إليه. فشريعتنا ظاهرية وليست باطنية، وهي تخاطب عامّة النّاس بلغة مفهومة وميَّسرة؛ يقول الإمام الخميني قدس سره: «**واعلم، أنَّ طيّ أيّ طريق في المعارف الإلهية، لا يمكن إلاَّ بالبدء بظاهر الشريعة، وما لم يتأدّب الإنسان بآداب الشريعة الحقّة، لا يحصل له شيء من حقيقة الأخلاق الحسنة، كما لا يمكن أن يتجلَّى في قلبه نور المعرفة، وتتكشّف له العلوم الباطنية وأسرار الشريعة. وبعد انكشاف الحقيقة، وظهور أنوار المعارف في قلبه، لا بدَّ من الاستمرار في التأدّب بالآداب الشرعية الظاهرية أيضاً**»[1].

وقد بيّنت الشريعة خطوات التوازن في حياة الإنسان؛ حيث يتوجّب علينا أن لا نرهق المتعلّم بمطالب تقصيه عن دنياه، فهذا ما لم تطلبه الشريعة المقدسة، ويجب أن نعرّفه حقَّه الدنيوي الذي يستحق أن يعيشه من دون حرج، فالإسلام هو - كذلك - للدنيا التي تمهّد للآخرة، ولا بدَّ من التوازن بين متطلّبات الجسد ومتطلّبات الروح؛ قال - تعالى -: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2]، وما التوجيه في المسائل الدنيوية إلاَّ لتركيزها في دائرة الحلال، وعدم الاعتداء، والإسراف؛ قال - تعالى -: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ

(١) الخميني، روح الله: الأربعون حديثاً، تعريب السيد محمد الغروي، ط٤، لام، نشر مؤسّسة تنظيم ونشر تراث الإمام الخميني قدس سره، ١٤٢٤هـ.ق/ ٢٠٠٣م، ص٣١.
(٢) القصص: ٧٧.

ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾[١]، وقال - تعالى -: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾[٢].

٥.إقامة الشعائر الجماعية:

حيث إنّ الأجواء العامّة بالغة التأثير على المتعلّمين، فكلَّما كثَّفنا منها، كلَّما ساعدنا ذلك على إحاطتهم بالمناخات التربوية، والثقافية، والروحية التي نريد تثبيتها في شخصياتهم؛ فالذي توفّره هذه الأجواء لا يمكن الحصول عليه من خلال المتابعة الفردية التعليمية أو السلوكية فقط، فغالباً ما تترك الأجواء التربوية العامّة بصماتها على المتعلّمين بترسيخ قيم ومفاهيم تتحوّل إلى مسلمات في إذهانهم، ولو لم تكتمل صورتها في تسلسل الدليل والإقناع بها، فهي تتفاعل في وجدانهم، وكأنّها غُرست في فطرتهم، قال - تعالى -: ﴿ ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ ﴾[٣]. وفي هذا الإطار يمكننا الاستفادة من خاصّيّة التركيز على الاهتمام بالإحياء الجماعي لبعض العبادات والشعائر الإسلامية، مثل:

أ-إقامة صلاة الجمعة.

ب-التركيز على صلاة الجماعة في المسجد، أو المدرسة، أو عندما يحل وقت الصلاة في شتى صور الاجتماع.

ج-التشجيع على حضور الأيام والليالي العاشورائية.

د-متابعة برنامج مترابط ومنوّع في شهر رمضان المبارك، وبشكل يومي؛ بنشاط جماعي.

هـ- إحياء ليالي القدر في المسجد أو مع الجماعة في مكان مشترك.

و-الاهتمام بموسم الحج، ودفع جيل الشباب المسلم لأداء هذه

(١) المائدة: ٨٧.
(٢) الأعراف: ٣١.
(٣) الحج: ٣٢.

الفريضة؛ بتسهيل الاستطاعة، ومن خلال الحملات الهادفة.

ز-إقامة احتفالات ولادة النبي ﷺ والأئمة عليهم السلام.

ح-إجراء احتفالات التكليف، ولاسيما للفتيات.

ط-الاحتفال بالمناسبات الإسلامية وإجراء المسابقات فيها، وتوزيع الجوائز والحلوى.

ك-إشراك المتعلّمين في تنظيم الأنشطة المختلفة ومتابعتها؛ لتكون لهم مساهماتهم وأدوارهم...

٦.غرس ثقافة: أنّ القيمة للعمل والسلوك:

من خلال تعويد الناس على أن يكون موقفهم وسلوكهم معبِّراً عن مضمونهم، وتبيان سلبية الاكتفاء بالإثبات النظري للموقف، أو قسم اليمين؛ لإثبات صحّة ما يتحلّون به من صفات، فإنَّ سلوكاً ينعكس على الآخرين أفضل من بيانات ومطوّلات؛ لإثبات سلوك غير بارز بين الناس.

إنّ الصدق سلوكٌ وليس ادعاءً، والأخلاق الحسنة سلوكٌ وليست كلاماً، والتعاون مع الآخرين سلوك وليس فكرة مجرَّدة: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[1]. ومن المفيد في هذا المجال إقامة برامج تدريبية للسلوك؛ من خلال الأنشطة المدرسية التي تتطلّب تعاوناً وصبراً وسهراً وتضحية... ومن خلال الرحلات التي تكشف طبيعة الأفراد، وتمكّن المسؤولين من التوجيه العملي المباشر، بل يكون من خطّتهم في الرحلة تحقيق جملة أهداف، منها: التعاون بين الأفراد، والإيثار في المقعد أو الطعام، والخدمة الجماعية بتهيئة المكان، والكلام المهذّب في التعاطي مع بعضهم... وهذا ما يستلزم أن لا تقتصر تلك الأنشطة على العبادة كما في بعضها، أو على الترفيه فقط كما في بعضها الآخر، بل يمكن رسم مجموعة من الأهداف لتحقيقها؛ عن طريق تعزيز السلوك من خلال العمل.

(١) التوبة: ١٠٥.

٧. العبادات بوابة تصويب السلوك:

قد يسأل البعض: كيف نشجِّع المتعلّمين على ممارسة العبادات باهتمام واستمرارية؟ وكيف نحفّزهم ليشعروا أنّها تؤنسهم وتريحهم؟

قال تعالى: ﴿ اتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾[١]، وهكذا في الصوم: ﴿...لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[٢]، وفي الحج: ﴿...وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ ﴾[٣].

فمهما اجتهدنا في اختيار الأساليب التربوية الناجحة فإنَّه لا غنى لنا عن عبادات الإسلام؛ بوصفها بوابة للسلوك الفاضل، والانتهاء من الفحشاء والمنكر؛ ولذا يترتَّب علينا أن نُقْنِعَ المتعلّمين بأن لا قيمة لهم من دون العبادة، وأنّ حياتهم ستذهب سدى إذا لم يؤدّوا فرائضهم في هذا المجال، وأن نحفّزهم بالتشجيع والاحترام والتقدير والمكافأة والتمييز عند اهتمامهم بالعبادات.

ولعلَّ التوتّر الذي ينشأ بين الأهل وأولادهم في توجيههم للصلاة ينشأ من شعورهم بالإلزام والآمرية المجرَّدة عن أحاسيس التفاعل والأنس بها، ومن اقتصار الطلب على الواجب من دون رعاية سلوك الأهل أمام أولادهم، وما يعطيه انطباع شخصيّاتهم عند أولادهم، أو أنّهم لم يعوّدوهم على نمط من الأخوَّة والتفاعل مرتبطاً بالأمر بالصلاة، كما نحن بحاجة إلى تعلية مقام المصلين، وإبرازهم كنموذج ناجح ومحبوب، وتهيئة الأجواء؛ ليكون التقدير والأولوية للمصلّين، ولا مانع من التفكير بسلسلة تصرّفات أو أعمال أو وعود ترتبط بالتزام المتعلّمين بأداء فرائضهم. فعليهم أن يدركوا أنّ ثمار العبادات قوّة لهم. فعن أبي عبد الله عليه السلام: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «**قال الله - تبارك وتعالى -: ما تحبَّب إليَّ عبدي**

(١) العنكبوت: ٤٥.
(٢) البقرة: ١٨٣.
(٣) البقرة: ١٩٧.

بشيء أحب إليَّ ممّا افترضته عليه، وإنَّه ليتحبَّب إليَّ بالنافلة حتى أحبّه، فإذا أحببته، كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ولسانه الذي ينطق به، ويده التي أعطيته بها»[1].

٨. تقوية الإرادة:

فمن الضروري أن نضع برنامجاً لتقوية الإرادة، فلا نعتمد على الوعظ والتوجيه فقط. وفي هذا المجال يمكن العمل على جوانب عدّة في شخصية المتعلّم:

أ- تشجيعه على اتخاذ بعض القرارات في أداء الواجبات وترك المعاصي، ومراقبته لنفسه؛ بتسجيل ما فعله؛ ليعود إليه في محاسبة النفس، ولا مانع من مساعدته في البداية بمراقبة ما أنجزه، وتصويب أدائه في الاتّجاه الصحيح.

ب- تكليفه بأعمال مرغوبة بالنسبة إليه؛ بحيث يرى قيمة ما أنجزه، ويفرح بقدرته على القيام به.

ج- تكلفيه بما هو سهلٌ عليه وغير معقّد في بداية الطريق، ويمكن أن نتدرّج معه في الصعوبة؛ ليألَفَ هذا النموذج من الأعمال.

د- وضع برنامج بسيط لاستبدال عادات بأخرى، على أن لا تكون كثيرة، ولا معقّدة، ولا تتطلّب جهداً كبيراً، وإنّما الهدف تحقيق البديل؛ بما ينسجم مع المطلوب منه على مستوى ترسيخ القيم الحقّة.

هـ- تعريفه على الآثار السلبية؛ من خلال تجارب الآخرين، أو من خلال استعراضها وإعطائها؛ بوصفها دليلاً عندما يُقدم على العمل ويرتكب الخطأ.

(١) الطبرسي، علي: مشكاة الأنوار، تحقيق مهدي هوشمند، ط١، لام، دار الحديث، ١٤١٨هـ.ق، ص٢٥٦.

و- إبعاده عن الأماكن التي تؤثّر على أدائه بطريقة سلبية.

ز- إبعاده عن الأفراد والأصحاب الذين يؤثّرون عليه باتّجاه الانحراف.

ح- تعزيز ثقته بنفسه؛ بأن لا يتوقّف عن المحاولة ولو فشل فيها مرّات عدّة، فمع التصميم ينجح؛ قال أمير المؤمنين علي عليه السلام: «**أصل العزم الحزم وثمرته الظفر**»[(١)].

٩.عناوين للمساهمة:

كما توجد مجموعة من العناوين التي تصلح للمساهمة في تحويل القيم إلى سلوك عند المتعلّم، منها:

أ.ربط التزكية بالتعليم وعدم التفكيك بينهما: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[(٢)].

ب.تعويده على مجموعة من التصرّفات؛ بحيث تتناغم مع النظم والقوانين المعتمدة؛ لتصبح تقليداً طبيعياً وعادياً في حياته اليومية.

ج.تأمين الحماية القانونيّة والنظاميّة للسلوك الحسن؛ بحمايته من خلال القوانين المدرسية التي تؤيّده وتسانده، وكذلك من خلال قوانين الأسرة، وقوانين الأماكن التي يرتادها.

د.تعويده؛ لرفع سقف سعيه باتّجاه الأفضل دائماً، وعدم اكتفائه بالأدنى: ﴿...إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[(٣)].

هـ.تأكيد الثقة لديه بأنّ اللّه - تعالى - يتوب عليه مهما كان ذنبه، قال - تعالى -: ﴿وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾[(٤)].

(١) الليثي الواسطي، علي بن محمد: عيون الحكم والمواعظ، تحقيق الشيخ حسين الحسيني البيرجندي، ط١، لام، دار الحديث، لات، ص١٢١.

(٢) الجمعة: ٢.

(٣) الحجرات: ١٣.

(٤) طه: ٨٢.

و.أن يؤمن بأنّ نتائج الصلاح خيرات لا تحصى ولا تُعدّ، قال - تعالى -: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ﴾[١].

ز.أن ينظر المتعلّم دائماً إلى أهمّيّة انعكاس سلوكه على العلاقة مع الآخرين، فهو ليس وحيداً، ومؤشّر علاقته المجتمعية هي التي تؤكّد سلامة السلوك السليم؛ بسبب انعكاسه بوضوح في حياة الناس.

ح.ترسيخ فكرة الابتلاء؛ بوصفه مقوّماً أساسيّاً في الحياة مهما بلغت شدّته، والقيمة الحقيقية لمن يجتازه لا لمن يتأفّف منه، ولا قدرة لأحد أن يمنع عنه البلاء، قال - تعالى -: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾[٢].

ط.العلاقة مع الجماعة والانضواء ضمن إطارها تقوي قدرة الصمود أمام التحدّيات، قال - تعالى -: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾[٣].

ك.محاولة التخلّص من الأمراض التي تصيب الإنسان، والتي حذَّرنا الله - تعالى - منها، كالعجلة؛ قال - تعالى -: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾[٤]، والكفر بالنعمة مع أنّه لا نعمة إلا من عند الله، ولا نجاة

(١) هود: ٥٢.
(٢) البقرة: ١٥٥-١٥٦.
(٣) الكهف: ٢٨.
(٤) الإسراء: ١١.

إلا بتوفيق الله - تعالى -: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾[1]، والظلم والجحود بحقّ النفس الإنسانية في علاقتها مع خالقها: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ ۚ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾[2].

خامساً: قيم المقاومة:

إنّ المقاومة رؤيةٌ مجتمعية بكل أبعادها، فهي مقاومةٌ عسكرية، وثقافية، وسياسية، وإعلامية، وهي مقاومةُ الشعب والمجاهدين، ومقاومةُ الحاكم والأمة، ومقاومةُ الضمير الحرّ في أيّ موقع كان؛ ولذا ندعو دائماً لبناء مجتمع المقاومة، ولا نكتفي بمجموعة المقاومة؛ لأنَّ مجتمع المقاومة يحمل الاستمرارية، أمّا مجموعة المقاومة، فأداؤها ظرفي.

ويمكن بناء مجتمع المقاومة من خلال العمل على تحقيق عدّة أمور:

١. الشهادة طريق إلى الهدف:

إنّ الإيمان بالشهادة يُعدّ طريقاً لتحقيق الهدف، وهي تتطلَّب رعايةَ ضوابطَ دقيقة للوصول إليها. ومخطئ من يظنّ أنَّ الشهادة هدف، فالهدف هو سبيل الله - تعالى -، والشهادةُ طريقٌ إلى هذا الهدف، كما إنّ إنفاق المال طريقٌ إلى هذا الهدف، وكذلك الاستقامة. فالشهادة هي التي تستطيع أن تدفعنا إلى المقدِّمة، وأن تُعيد لنا بُنية تربيتنا، فهي ضدّ المحتلين والظالمين. وهنا يجب التمييز بين الاستعداد للشهادة والإقدام عليها، فليس المقصود من ثقافة الشهادة أن تنحصر حركة المؤمنين في اتجاه السعي للشهادة، وإنَّما في اتّجاه توافر الاستعداد الكامل للتضحية بالنفس،

(١) الإسراء: ٦٧.
(٢) إبراهيم: ٣٤.

عندما يتطلّب الموقف ذلك. وهنا، تمثّل الشهادة آخر خطوة بعد استنفاذ كلّ الجهود؛ لتكونَ السلاح الأمضى في المواجهة في حال عدم تكافؤ القوى، فتحقّق النتيجة الفعّالة للدفاع المشروع عن الموقع وتحصين الهدف.

والشهادة مع كونها أمنية القرب الأرقى من الله – عزّ وجلّ –، لكنّها مقيّدة بالزمان والمكان المناسبين، فهي جزء من التكليف الشرعي بضوابطه، وتصبح واجبة عند انحصار الخيارات بها، كما حصل مع الإمام الحسين عليه السلام عندما قال: «**إنّي لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برَماً**»[1]؛ إذ انحصرت خياراته باثنين هما: الموت العزيز أو الاستسلام الذليل، وكان لا بدَّ من أحدهما، فاختار الشهادة بعزّة، على الاستسلام للظالمين بذلّ.

هذا الإمام العظيم، سيد الشهداء عليه السلام الذي قاتل في كربلاء، هو الذي صبر مع أخيه الحسن عليه السلام خلال حكم معاوية؛ لأنّه كان يرى خيارات أخرى قبل الوصول إلى خيار الشهادة، وبما أنَّ أمانة النفس الإنسانية عظيمةٌ عند الله، فلا يمكن لأيّ إنسان أن يستهتر بها، ولا أن يتسرَّع في زجّها في مواقع الخطر والموت، أو أن يتَّخذ قراره بالشهادة في كلّ حادثةٍ أو صعوبةٍ تواجهه؛ فالعطاءُ النبيل للشهادة، وثمرة الدفاع المشروع في التوقيت والزمان المناسبين، يجب أن يكون بقرار من القيادة الشرعية الحكيمة المسؤولة التي تحمل مسؤولية الدماء، إذ لا يستطيع أي فرد من الأفراد أن يذهب ويقدِّم نفسه كيفما كان.

إنّ الدرجة العليا للشهداء عند الله – تعالى –، تجعل الشهادة في هذه الموقعية والأهمية، وتحفِّز المؤمنين للطموح إلى تحصيلها؛ قال – تعالى –:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡ أَعۡظَمُ دَرَجَةً

(١) الطبري، محمد ابن جرير: تاريخ الطبري، تحقيق ومراجعة وتصحيح وضبط نخبة من العلماء الأجلاء، لاط، بيروت، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، لات، ج٤، ص٣٠٥.

عِندَ ٱللَّهِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ﴾[١]، وفي الحديث الشريف عن رسول الله ﷺ: «**فوق كلّ ذي برٍّ برّ، حتى يُقتل الرجل في سبيل الله، فإذا قُتل في سبيل الله فليس فوقه برّ**»[٢]، وفي خطبة السيدة زينب عليها السلام في مواجهة ابن زياد قالت: «**الحمد لله رب العالمين، الذي ختم لأوَّلنا بالسعادة والمغفرة، ولآخرنا بالشهادة والرحمة**»[٣]، فالشهادة خطّ متواصل مع الحياة الحقيقية.

إنَّ الانتصار على النفس بالاستعداد للشهادة يختصر طريق الصراع مع النفس الأمَّارة بالسوء ليحوِّلها إلى نفسٍ مطمئنة، ويرقى بالإنسان إلى أعلى درجات الاستقامة، ويساعده في استيعاب دوره ومكانته في هذه الدنيا؛ بوصفها معبراً إلى الآخرة. وبما أنَّ الموت مرتبط بالأجل، والأجل بيد الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ لَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ سَاعَةٗۖ وَلَا يَسۡتَقۡدِمُونَ ﴾[٤]، فخيرٌ للمرء أن يختار طريقاً يمكن أن يوفِّقه للشهادة، من أن يموت على فراشه، وهو قادرٌ أن يصنع طريقه إلى الموت من أجل الحياة، إذا وفَّقه الله تعالى لذلك.

٢.سرُّ قوَّتنا:

إنّ الشهادة هي ثقافة الحياة الحقيقية والعزيزة في مقابل ثقافة الموت، فقيم الشهادة نبيلة، والشهادة حياة، والتبعية والذلُّ موت، والسيادة حياة، والوصاية موت، وتحرير الأرض حياة، والخضوع للاحتلال موت؛ قال الإمام علي عليه السلام: «**فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين**»[٥]، هكذا نفهم الحياة.

وعلى هذا الأساس تأتي المواجهة بين الحقّ، والاستقامة،

(١) التوبة: ٢٠.
(٢) الكليني، الكافي، م.س، ج٢، باب العقوق، ح٤، ص٣٤٨.
(٣) المجلسي، بحار الأنوار، م.س، ج٤٥، ص١٣٥.
(٤) النحل: ٦١.
(٥) الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، م.س، الخطبة٥١، ص١٠٠.

والتحرير، والفضيلة، والعدالة، في مقابل الظلم، والعدوان، والاحتلال، والفساد، والطغيان، عندما لا تملك الأمّة أو الثلّة المخلصة فيها القدرة المادية والعسكرية لمواجهة الكثرة وإمكاناتها، وعندما تقف الأمّة أمام خيارين: إمَّا الاستسلام وإمَّا النصر والوقوف والصمود، حينئذٍ لا بدَّ من اختيار الصمود مهما كانت كلفته، وهنا يأتي دور الجهاد ودور الشهادة.

فالشهادة إذن، تعالج خلل التوازن في الإمكانات، ومع الاستعداد للشهادة يبطل مفعول القوّة؛ بالتخويف بالقتل والموت، ما يعطي قوّة إضافية للمؤمنين، ويُربِك العدو العاجز عن إخافتهم، ويقوِّي عامل الرفض في الأمّة؛ ما يجعلها عصيَّة على مؤامرات الأعداء، ولا نبالغ عندما نعطي هذه القيمة الكبيرة للاستشهاد؛ لأنّ التجربة الواقعية قد أثبتت فعالية هذا الخيار.

فقوَّتنا حقٌ إنساني مع شهادة، أمَّا قوتهم فمادةٌ وإمكانات مع جبن وخوف. وهكذا تبيَّن أنَّ سرَّ قوَّتنا ينتصر على سرِّ قوَّتهم؛ إذا عرفنا كيف نُرَاكِمُ هذا السِّر في داخل الأمّة؛ لأنَّ المسألة مرتبطةٌ بالاستعداد، وعلينا أن نُرَاكِمَ بُنيان الشهادة لمواجهتهم، وفي كلّ مراحل التاريخ كان الإنسان ينتصر دائماً على القوّة والمادة؛ عندما تتوافر لديه الإرادة، وعندما يرتبط بالله تعالى.